# آلات الاجسام الحية

( تابع ما قبلهُ )

قد يعرض للمرء امور تنبه فيهِ اميالاً تضاد مبادئهُ العادية التي يعبّر عنها بشخصيّتهِ فلا يستطيع التغلّب على هذه الاميال الاّ اذا قاومها بالمبادىء الادبية التي تأدب بها وبما يجب عليهِ لنفسهِ ولغيرهِ . واذا فعل ذلك وقوي عليها زادت ارادتهُ قوةً وزادت الصفات التي تتألف منها شخصيتهُ تضامناً وارتباطاً . ولكن اذا كانت الامور التي عرضت لهُ فنبهت فيهِ تلك الاميال مفرطة في قوتها او كانت قواهُ العقلية ضعيفة في فعلها حاول عقلهُ تجاهلها بدلاً من مقاومتها حتى اذا قويت على سلطة عقلهِ اثرت فيهِ تأثيراً شديداً كأنهُ انفصل عن نفسهِ وآل ذلك فيهِ الى نوع من انواع الضعف العقلي والعصبي التي تعتري المصابين بالهستيريا

واذا اعتبرنا كثرة التراكيب التي يتألف منها الانسان لم نجد لهُ مثيلاً في شدة ما بين اجزاء جسمهِ من التضامن والانتظام ولاسيما اذا صمم على عمل يقتضي انضاء العزمة وبذل الهمة . فانتظام تركيب الدماغ فسيولوجياً وسمو قواهُ الناطقة بسيكولوجيًّا يمثلان من الجهة البيولوجية غاية الكمال الحيواني

والصفات العقلية القائمة بالمجموع العصبي هي غاية الكمال في بناء الحيوان . واذا نظرنا اليها نظراً بيولوجيًّا واسعاً وجدنا انها تتقدّم في كمالها ولا تقف عند الفرد بل تتناول الجماعات . ويظهر لدى امعان النظر انها تبلغ في ارتقائها قمتين عاليتين الواحدة في الحشرات والثانية في ذوات الفقار والانسان على رأسها . اما عقل الحشرات فمن نوع الغرائز ولا شيء فيهِ من التمييز او القوة العاقلة . اما ذوات الفقار فالطبقة العليا منها فيها غريزة وقوة عاقلة تجمعان الافراد جماعات وتنظمانها تنظيماً لا مثيل لهُ في غيرها من انواع الحيوان . والانسان ارقى هذه الانواع الاجتماعية وقد صار كذلك بقواهُ العاقلة . هناك اللغة والتقليد والغرائز التي تدعوهُ الى حفظ نوعهِ كما تدعوهُ الى حفظ نفسهِ . هناك العقل الذي تفعل بهِ العواطف والاميال وتخضع لهُ الانانية والغيرية فيمزجهما معاً ويكوّن منهما طبعاً عقليًّا غريزيًّا منتظماً

الجماعة تتألف من افرادها كما يتألف الجسم من الخلايا التي يتركب منها. ومصالح الفرد ترتبط بمصالح المجموع كما ترتبط اجزاء الجسم المختلفة بعضها ببعض بواسطة المجموع العصبي لتكوّن جسماً عاقلاً منتظماً . وهذا الارتباط بين طوائف الناس ابتدأ منذ العصور الخالية ولا يزال آخذاً في النمو والانتظام. والبحث فيه بيولوجيًّا عقليٌّ في جوهره وعليه مدار علم النفس الاجتماعي (Social psychology). ومن هذا القبيل البحث الهام في فرع علم الاجتماع الذي رئيسهُ أكبر ثقة عندنا فيه . ومدار هذا الفرع على ما تطلبهُ الأعمال المتضامنة المنتظمة من كل احد كعضو في المجتمع الانساني لكي تعاد الاعمال الى انتظامها السابق بعد ما تولاها من الخلل

يستنتج مما تقدم ان في بعض مظاهر الحياة الحيوانية اعمالاً او وظائف نعرف كيفيتها على نوع ما ونستطيع تفسيرها . وبعض هذه الاعمال او الوظائف مثل انقباض العضلات ودورة الدم والشهيق والزفير لادخال الهواء الى الرئتين واخراجه منهما وانواع الحركات العصبية — كل ذلك نستدل مما عرفناهُ من امره حتى الآن على ان العلوم الطبيعية والكيماوية ستمكننا من معرفة ما نجهلهُ منهُ . وقد يحق لنا ان نقول اننا سنعرف كيف يعمل الجسم الحي اعمالهُ كما نعرف كيف يدور المحرك الغازي او المحرك الكهربائي. وقد نفهم المبدأ الذي تتحرك به آلة من الآلات ولو لم نستطع ان نعمل تلك الآلة كما اننا لا نستطيع ان نعمل الجواهر الفردة التي يتألف منها المحرك الغازي

لكننا اذا التفتنا الى خواص أخرى من خواص الجسم الحي مثل تكونهِ في شكل محدود وتكيف اعضائهِ حتى تصلح للوظائف التي تقوم بها افراداً واجمالاً وكون ذلك يبدأ والحيوان بيضة صغيرة فيتشكل وهو جنين حتى يصلح للعمل المطلوب منهُ متى بلغ اشدهُ. ومثل ان العمر الطبيعي الذي يحياه كل حي محدود — وجدنا ان كل ذلك وما يناسبهُ من تكوين اعضاء الجسم لم يزل سرًّا غامضاً معها بذلهُ العلم من البحث والاستقصاء . فان النتائج معروفة وهي الدرجات التي تمرُّ فيها الاحياء من بداءة تكونها الى نهايتهِ ولكن اسبابها غير معروفة . وكذلك لا نعرف كيف يرتبط العقل بالجسد فان المشابهة او المماثلة بين الافعال العقلية والعصبية لا تكشف لنا ماهية الارتباط بين الاثنين . وكل ما عرفناهُ من علم الاحياء انما يُثبت لنا شدة الارتباط بين الاثنين

الصاعب في فهم حالات الحيوان المتنوعة كثيرةٌ مختلفة فاذا اردنا ان نفهم كيف وُجد وندرسهُ درساً مدققاً بمعارفنا القاصرة وجب ان نحللهُ الى اجزائهِ لا ان نكتفي بالنظر اليهِ كشيء كامل قائم برأسهِ. لكن هذا التحليل غير طبيعي ولا يمكن العمل بهِ فان الحيوانات والنباتات ايضاً كائنات كلٌّ منها جسم كامل قائم برأسهِ وبهذه الصفة يجب ان ننظر اليهِ لاننا لا نستطيع ان ندرك افعال عضو واحد من غير ان نقرنهُ بغيرهِ من الاعضاء المرتبطة بهِ. فيحق للعقل ان يحاول ادراك الكيفية التي يجري عليها الجسم الحي كجسم كامل من غير ان يهمل خاصة من خواصهِ

هذا المطلب من اسمى المطالب التي تقصر عنها الهمم فالوصول اليهِ تزيد قيمتهُ بما يبذَل في سبيلهِ من الجهد وهو يتناول البحث عن العقل ويتضمن البحث في الانسان من حيث كونهُ خاضعاً لناموس بيولوجي يجمع الافراد المتفرقة في نوع كبير منتظم — مجموع جديد في تاريخ هذه الارض لان هذا الاتجاه البيولوجي آخذ في انشاء مجتمع يتوقف ارتباط اجزائهِ بعضها ببعض على ميزة امتاز بها الانسان وارتقت فيهِ بنوع خاص حتى صارت من اخص مقوماتهِ وهي العقل الذي تدفعهُ الغرائز ويرشدهُ الادراك. والانسان المتمرد على الطبيعة كما قال فيهِ السر راي لنكستر يستطيع ان يرى هذا المطلب السامي ويطبّق سيرهُ عليهِ عالماً ان عصيانهُ يأول الى انحطاطهِ او يحول دون استمرارهِ في الارتقاء. انتهى

---

لا نتذكر اننا لقينا من الصعوبة في ترجمة خطبة من الخطب التي تتلى في مجمع تقدم العلوم البريطاني ما لقيناه في ترجمة هذه الخطبة مع اكتفائنا احياناً بالتلخيص لصعوبة الموضوع ولان عبارة الخطيب كثيرة التعقيد. وعسى ان يصل نوع الانسان الى الحالة التي قدّر وصولهُ اليها من التكافوء والتضامن بين افرادهِ وطوائفهِ حتى يصير من هذا القبيل كالجسم الحي لكننا لا نرى في احوال الامم الحاضرة ما يدلُّ على ان ذلك قريب الحصول ولا على انهُ يقع بعد قرن او قرنين. فان كان الانتظام والتكافؤ بين اعضاء جسم الحيوان اقتضى ملايين من السنين فلا عجب اذا مرَّت مئات من القرون قبلما يتم الاتفاق والتكافؤ بين اعضاء المجتمع الانساني